العلامة (ناصر سبحاني)

ودعوته لمراجعة التراث والتجديد في الدين

(شهادة ومناشدة)

د. عمر عبد العزيز

✍ هـذه شـهادة منـي، ومناشـدة متجـدّدة، أعلنـتهما مـراراً، وأعيـدهما الآن، فلقـد عاصرت علّامة كوردستان (ناصر سبحاني) قرابة عقد من الزمن، كنا نجتمع ونتدارس، أحياناً نراجع الماضي، وننتقده، أو نقيم الواقع ونناقشه، أو نستشرف المستقبل، ونعدّ أيامه..

لقد دعا الشهيد ـ بصراحة وجرأة وموضوعية ـ الصـفوة الثقافيـة والعلميـة المعاصـرة، والمؤسسـات (الأكاديميـة)، لـدعم النهـوض العلمـي، بالتجديـد، وإحيـاء روح الاجتهـاد، وممارسته، وعدم مسـايرة التقليـد الأعمـى، الـذي كـان يأبـاه سـلف الأمّـة، وسـعى لإزالـة الضبابية الطاغية على جوانب من المنظومة الفكرية الإسلامية، والتصدّي للإشـكاليات التـي زامنت تدوين الأحاديث والآثار، والتي بقي جانب منها لحد الآن دون علاج.

وفي هذا السياق، دعا لإعادة صياغة جانب من مناهج العلوم الإسلامية، وتطـوير كثـير منها، وإضافة قواعد وضوابط وشروط لم يتحدّث السلف عن كثـير منهـا، لأسـباب تاريخيـة وسياسية وبيئية، أو تحدّث عنها بعضهم في فـترات، ولكـن طواهـا الـزمن، لأسـباب فكريـة وسياسية. كما دعا للاجتماع عـلى الثوابـت المجمـع عليهـا، بجعـل القـرآن، والمقاصـد التـي أقرّها، والقواعد التـي وضـعَها، والحكمـة العمليـة لرسـول الله (صـلوات الله عليـه)، حَكَـماً ومعياراً لكثير من الأمور.

وممّا ينبغي الشهادة فيه ـ وأنا لها قائم ـ أن الشهيد ناصر سبحاني لم يُقحم نفسه ـ ولا سعى لإقحام غيره ـ في مغبّة متاهات علمية، وصراعات جدلية، ولا كان متأثّراً بأحد من الفلاسفة، أو المستشرقين، أو غيرهم، ممّن شكّك في منظومات الفكر والثقافة والتاريخ للمسلمين، بل كان يعيش مع القرآن الكريم، والسيرة النبوية، عيشة متفاعلة، قلّ نظيرها، عاشها بكيانه، وأحاسيسه، ومشاعره، لذا لم تكن دعواته للتجديد إلا من خلال الدعوة لفتح باب التحقيق الدقيق، والاستقراء العلمي، تماماً كبعض أسلاف الأمّة، الذين كان سبحاني نفسه من المفتخرين بهم.

ولقد دعا لتحرير المناهج العلمية، وتنقيتها من شوائب التقليد، والتزمّت الفقهي، وإزالة غبار الركود عليها، واكتمال الأدوات العلمية، بما منحه الله البشرية في العصر الحاضر. وطلب أن يوضع حدّ للانبهار المفرط بكل ما هو قديم، الذي يمنع التجديد والتطوير والإبداع والاجتهاد. فلقد كان السلف أبطالاً لها لأيامهم، وحرصوا أن تستمر تلك الروح الإبداعية التجديدية في الأجيال التي تليهم، ليكونوا أبطالاً لأيامهم هم كذلك.

ولهذا، لو وصفنا مصبّات سعيه العلمي باختصار، لقلنا: كان سعيه ينصبّ في مواجهة غرابة الفكر، وقصور المناهج، وتقصير النخب العلمية، وقداسة التقليد، وغياب المقاصد، وضبابية الرؤية، والخلل في الفهم. وكان يطالب ـ ملحّاً ـ بتجاوز تقليد المجتهدين، واجتهاد المقلّدين..

إنني أرى أنه آن الأوان لأن يلتفت إلى هذه الشهادة أولوا النهى من النخب العلمية والأكاديميين، أناشدهم أن:

- يبدأ وا بالمواكبة على دراسة نتاجات المرحوم، التي غذّاها بدمائه الزكيّة أوّلاً.
- وأن يجعلوا مؤلفاته، وبعض دروسه، ضمن البرامج العلمية للمدارس الشرعية ثانياً.
- وأن يشجّعوا طلاب الدراسات العليا لتخصيص أطروحاتهم لدراسة نتاجاته المتنوعة، ثالثاً.

فلا يكاد يجد أيّ باحث موضوعاً علمياً، أو علماً شرعياً، إلا وللعلامة ناصر سبحاني قول فيه.. وهذا ـ في نظري ـ أقلّ وفاء، لأطول جفاء، دام ثلاثين سنة مضت على وفاته، رحمه الله تعالى ❐